

رباعية الديمقراطية



د. مراد وهبة

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
مدخل	5
الفصل الأول: رباعية الديمقراطية	11
• العلمانية	13
• نظرية العقد الاجتماعي	18
• التنوير	23
• الليبرالية	28
الفصل الثاني : ماذا فعلنا بـ "رباعية الديمقراطية" ؟	33
• اغتلتنا العلمانية	35
• صادرنّا العقد الاجتماعي	39
• وأدّنا التنوير	44
• بترنا الليبرالية	49
الفصل الثالث : حضارة واحدة بين رباعيتين	55
• حضارة واحدة بين رباعيتين متناقضتين	57
• ما بعد رباعية الديمقراطية	61

مدخل

قال الرئيس مبارك للمذيع الشهير تشارلي روز في قناة "بي.بي.سي" الأمريكية بتاريخ 2009/8/18: "إن إدارة الرئيس جورج بوش لم تكن على صواب في الطريقة التي انتهجتها في نشر الديمقراطية بالمنطقة حيث إن مصر لا تقبل ضغوطاً من أية إدارة مع احترامنا لكل الحكومات". وأظن أن عبارة الرئيس هذه تعبير موجز عن إشكالية الديمقراطية. وإذا كانت الإشكالية تنطوي على تناقض فما هو التناقض إذن الكامن في الديمقراطية؟

ونجيب بسؤال:

هل هذا التناقض كامن في مفهوم الديمقراطية أم في مسار الديمقراطية؟

نشأ مصطلح "الديمقراطية" في القرن الخامس قبل الميلاد في كتاب "تاريخ الحرب البليبونيزية" للمؤرخ اليوناني ثوسيديس "460 - 400 ق.م" عندما ذكر عبارة رجل الدولة في أثينا وهو بركليس: "إن أثينا هي نموذج للديمقراطية لأن دستورنا لا يحاكي

قوانين الدول المجاورة، إنما هو نموذج للآخرين. وإدارتنا تتحاز إلى الأغلبية وليس إلى الأقلية، وقوانيننا ضامنة للعدالة بالنسبة إلى الكل في شأن نزاعاتهم الخاصة، والرأى العام عندنا، يرحب بالموهبة ويجلها في كل فرع من فروع الإنجاز، ليس لأسباب طائفية بل استناداً إلى التميز وحده".

والبين من عبارة بركليس هذه أن أحداً من الأثينيين لم يكن رافضاً لتقبل هذا المعنى للديمقراطية، إلا أن ديمقراطية أثينا جرت في مسار بعد ذلك غير الذى كان يتصوره بركليس، إذ اشتعلت الحرب البليبونيزية بين أثينا وإسبرطة في عام 431 ق.م، أى قبل موت بركليس بعامين، وانتهت بمعاهدة مؤقتة في عام 421 ق.م، ثم استؤنفت الحرب في عام 412 ودمرت أثينا بل دمرت اليونان، وتم احتلالها في عام 404.

وإثر هزيمة أثينا ارتأى أفلاطون " 427 - 347 ق.م ". أن الديمقراطية هي سبب الهزيمة، ومن ثم دعا إلى استبعادها وإحلال الحكم المطلق بديلاً عنها، والحكم المطلق هو حكم الله، والمماثل لهذا الحكم على الأرض هو حكم الفيلسوف، ومن ثم فالفيلسوف في رأى أفلاطون هو وحده القادر على أن يكون رئيساً لجمهورية.

وتأسيساً على ذلك دعا أفلاطون إلى ضرورة صياغة البشر
فى قالب واحد بحيث يسعدون ويحزنون فى أمور واحدة وفى وقت
واحد، وبذلك تتحقق وحدة المدينة. ومن هنا قال أفلاطون عن
المدينة إنها " إلهية " .

ومن بعد أفلاطون توقف استخدام لفظ ديمقراطية لمدة
ألفى عام، وانشغل علماء السياسة بدراسة النظام الملكى والنظام
الارستقراطى، وإذا ذكروا الديمقراطية فإنهم لم يذكروها إلا
كنظام حكم.

وهنا لابد من إثارة هذا السؤال: لماذا توارى لفظ
"ديمقراطية" لمدة ألفى عام؟

ونجيب بإثارة سؤالين: هل بسبب دعوة أفلاطون إلى حكم
الله بدلاً عن حكم الشعب؟ أم هل بسبب أن الحروب مناقضة
للمدقراطية؟

أظن أن فى إمكاننا العثور على الجواب عن هذين السؤالين
عند أوغسطين " 354 - 430 م " فى القرن الرابع الميلادى، فهو
أولاً أفلاطونى النزعة، وقد قيل فى ذلك إن الأفلاطونية هى التى
قادتة إلى المسيحية. ولا أدل على صحة هذا القول من أنه تفهم

المسيحية على ضوء ما انتهى إليه من الفلسفة الأفلاطونية. ثم هو ثانياً قد رتب على ضوء هذه العلاقة بين الأفلاطونية والمسيحية تأليف كتابه التاريخي "مدينة الله"، حيث ارتأى أن ثمة مدينتين: مدينة الأرض ومدينة السماء أو مدينة الله، وبينهما حرب هائلة، الأولى تعمل على نصره الظلم والثانية تعمل على نصره العدالة، والمدينتان تتقيان في الحياة الراهنة، ولكن الصدارة لمدينة الله، ومن ثم تكون سلطة الدولة عند أوغسطين أدنى من سلطة الكنيسة، ومن هنا يلزم خضوع الدولة للكنيسة، وبذلك تنتهي المدينة الإلهية عند أفلاطون، إلى مدينة الله عند أوغسطين. وهذه المدينة بدورها تدافع عن العدالة حتى لو أدى الأمر إلى إشعال الحرب، والحرب في هذه الحالة يسميها أوغسطين حرباً عادلة. ومن مدينة الله ندخل إلى العصور الوسطى، حيث الحق الإلهي للحاكم.

وتأسيماً على هذا المسار يمكن القول بأن اختفاء لفظ "ديمقراطية"، مردود إلى السببين معاً: دعوة أفلاطون إلى حكم الله ودعوة أوغسطين إلى الحرب العادلة بحكم خضوع الدولة لحكم الله، ومعنى ذلك أن حكم الله مناقض للديمقراطية.

والسؤال بعد ذلك:

ماذا يعنى حكم الله؟

هل يعنى أن الله هو الذى يحكم وليس الإنسان. وإذا كان ذلك كذلك أفليس يعنى ذلك أن الله متغير بتغير البشر، وهذا تناقض غير مشروع بحكم ثبات الله وعدم تغيره؟

والسؤال إذن:

ماذا يحدث لو أزيل هذا التناقض غير المشروع؟

هل تعود الديمقراطية؟ وكيف تعود؟

أجيب عن هذا السؤال تحت عنوان "رباعية الديمقراطية".

الفصل الأول

رباعية الديمقراطية

العلمانية

هذه الرباعية مكونها الأساسى العلمانية ومكونها النهائى الليبرالية، وبينهما العقد الاجتماعى والتتوير، ولكل مكون من هذه المكونات الأربعة معنى وقصة، وأبدأ بالعلمانية وأتساءل:

ما العلمانية؟

عند العرب حدث اضطراب فى معنى ضبط الكلمة، فَمَن فتح العين أراد النسب إلى العالم، وَمَن كسر العين أراد النسب إلى العلم. وجاء فى " المعجم الوسيط " فى الطبعة الثالثة الصادرة عن مجمع اللغة العربية (1985) أن العلمانى نسبة إلى العلم بمعنى العالم وهو خلاف الدينى والكهنوتى، ومن ثم يكون ضبط كلمة علمانى بكسر العين خطأ شائعاً بين طائفة المثقفين، غير مبالية بسلامة نطق الكلمة.

أما عند الفرنجة فالعلمانية تعنى العالم المتزمن بالزمان، أى عالم له تاريخ، ومن هذه الزاوية نقال العلمانية على العالم الزمانى والنسبى، أى المتحرر من الصيغ المطلقة.

هذا عن المعنى اللغوي للعلمانية فماذا عن قصتها؟

بداية قصتها فى القرن السادس قبل الميلاد عندما أعلن الفيلسوف اليونانى فيثاغورس نظرية دوران الأرض مع تحذيره لتلاميذه من إفشاء هذه النظرية. وقد كان محقاً فى هذا التحذير لأنه مجرد أن تخلى تلاميذه عن هذا التحذير وأفشوا النظرية أحرقت الجماهير الدار التى كان يجتمع فيها فيثاغورس مع تلاميذه، وقيل إن فيثاغورس لم يصب بضرر لأنه كان متغيّباً عن الدار يوم الحريق.

وفى القرن الخامس قبل الميلاد تطور معنى العلمانية عند الفيلسوف اليونانى بروتاغوراس، إذ قال: " إن الإنسان مقياس الأشياء جميعاً "، ورتب على هذا القول نتيجة مهمة وهى أن الإنسان عاجز عن معرفة الحقيقة المطلقة، أو بالأدق عاجز عن معرفة أى حقيقة فاتهم بالإلحاد وحُكم عليه بالإعدام وأحرقت مؤلفاته ولكنه فرّ هارباً، ومات غرقاً أثناء فراره.

وفى القرن السادس عشر، أى بعد عشرين قرناً من الحكم بالإعدام على بروتاغوراس نشر العالم الفلكى البولندى نيقولا كوبرنيكس كتابه الشهير المعنون " عن دوران الأفلاك " دلل فيه

على دوران الأرض، وبالتالي على عدم مركزيتها للكون. وكانت لديه قناعة - وهو يحتفظ بسرية هذا الكتاب الذى قضى فى تأليفه ستة وثلاثين عاماً - بأن أشخاصاً سيطالبون بإعدامه هو وأفكاره، ولكنه كان على وعى بأن عقله يجب ألا يذعن لعقول الدهماء. وفى 24 مايو 1543 جاعته نسخة مطبوعة من كتابه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. وفى 5 مارس 1616 قررت محكمة التفتيش فى روما تحريم كتابه من التداول بدعوى أنه كافر.

ثم جاء جاليليو وأعلن انحيازَه لنظرية كوبرنيكس. وفى عام 1632 نشر كتابه المشهور المعنون " حوار حول أهم نسقين فى العالم " الذى يدحض فيه نسق بطليموس وفكرته المحورية أن الأرض هى مركز الكون وأن الأفلاك هى التى تدور حولها، ويدعو إلى نسق كوبرنيكس، فصودر الكتاب واستدعى جاليليو إلى روما للمثول أمام ديوان التفتيش لمحاكمته فأنكر وأقسم وهو راعٍ على ركبتيه، ثم وقع بإمضائه على صيغة الإنكار والقسم، ويُحكى أنه بعد التوقيع ضرب الأرض برجله وقال فى صوت هامس " ومع ذلك فهى تدور ".

ومن بعد جاليليو جاء الفيلسوف الإيطالى جيوردانو برونو.

كان يعتقد في نسبة المكان والحركة والزمان فأنتهى إلى أن الإنسان ليس في إمكانه الوصول إلى يقين مطلق، ومن هنا كان من الميسور عليه أن يدافع عن نظرية كوبرنيكس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس، وبالتالي فإنها لم تعد مركزاً للكون فأعدم حرقاً من قبل السلطة الدينية.

والسؤال إذن:

لماذا تعتبر نظرية "دوران الأرض" عند كوبرنيكس هي بداية العلمانية في القرن السادس عشر أو بالأدق في عام 1543 وهو عام صدور كتاب كوبرنيكس؟

لأن هذه النظرية تعني أن الأرض لم تعد مركزاً للكون، وعندما لا تكون الأرض مركزاً للكون لا يكون الإنسان بدوره مركزاً للكون، وعندما لا يكون الإنسان كذلك فلن يكون في إمكانه امتلاك الحقيقة المطلقة. ويرتب على ذلك أن يكون الإنسان محكوماً بما هو نسبي، وحتى لو تطلع إلى اقتناص المطلق فلن يكون في إمكانه اقتناصه، ومع ذلك فإن الإنسان لن يتوقف عن توهم تحقيق اقتناصه. ومن هنا كان تعريفى للعلمانية بأنها "التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق".

ويترتب على هذا التعريف ثلاث نتائج:

النتيجة الأولى، أن من يؤيد نظرية دوران الأرض هو علماني بالضرورة، وأن من يرفض العلمانية يرفض دوران الأرض بالضرورة.

النتيجة الثانية، أن القول بأن العلمانية هي فصل الدين عن الدولة هو قول في حاجة إلى تصويب لأن هذا الفصل معلول للعلمانية التي هي العلة في هذا الفصل، ومعنى ذلك أنه عندما يكون أسلوب تفكيرك علمانيًا يكون في إمكانك قبول فصل الدين عن الدولة وعكس ذلك ليس بالصحيح.

ومن هنا يمكن القول بأن العلمانية أسلوب في التفكير قبل أن تكون أسلوبًا في السياسة.

نظرية العقد الاجتماعي

إذا كانت نشأة العلمانية في القرن السادس عشر مردودة إلى نظرية دوران الأرض للعالم الفلكي البولندي كوبرنيكس فإن نشأة نظرية العقد الاجتماعي في القرن السابع عشر مردودة إلى مفهوم " الموافقة " للفيلسوف الإنجليزي جون لوك. وإذا كانت العلمانية هي المكون الأول والأساسي للديمقراطية فنظرية العقد الاجتماعي هي المكون الثاني.

والسؤال بعد ذلك هو على النحو الآتي:

ما العلاقة بين نظرية العقد الاجتماعي والموافقة؟

أثار لوك هذا السؤال في كتابه المعنون " رسالتان عن الحكومة".

في الرسالة الأولى الفكرة المحورية تدور حول تدمير مبدأ الحق الإلهي للملك، أي أنه ليس من حق الملك الزعم بأن سلطانه مستمد من سلطان الله، إذ هو مستمد من سلطان الشعب. وفي

الرسالة الثانية الفكرة المحورية تدور حول أصل المجتمع، إذ المجتمع لم يكن موجوداً مع بداية وجود بنى البشر، وإنما الذى كان موجوداً هو ما يسميه لوك " حالة الطبيعة"، حيث كل إنسان هو قانون نفسه، ولهذا لم يكن ثمة سلام، فالضعفاء لم يكن لديهم من يحميهم من الأقوياء، والأقوياء أنفسهم كانوا فى زعر من منافسيهم، الأمر الذى أفضى فى النهاية إلى تكوين مجتمع بـ " عقد اجتماعى" ينص على " موافقة " البشر على التنازل عن بعض حقوقهم لحاكم يأتى بإرادتهم فى مقابل أن يحقق لهم الأمن والأمان.

ويلزم من ذلك أن يكون سلطان الحاكم سلطاناً نسبياً وليس سلطاناً مطلقاً. ومن هنا تكون نظرية العقد الاجتماعى مؤسسة على العلمانية بحسب تعريفى لها بأنها " التفكير فى النسبى بما هو نسبى وليس بما هو مطلق " .

ويلزم من ذلك أيضاً أن المفاهيم المترتبة على العقد الاجتماعى تكون مفاهيم نسبية بالضرورة. ويأتى فى مقدمة هذه المفاهيم مفهوم التسامح. وقد حرر لوك " رسالة فى التسامح " نشرها فى عام 1689، أى قبل عام من صدور كتابه " رسالتان عن الحكومة"، وقد نشر " التسامح " و " الرسالتان " دون ذكر اسم

مؤلفهما جون لوك، وسبب ذلك مردود إلى أنه قد اتهم بالتورط في مؤامرة ضد الملك فهرب من إنجلترا إلى هولندا، وكان ذلك الملك هو جيمس الثاني. كان كاثوليكياً متعصباً إلى الحد الذي أراد فيه أن يتحالف - بتعصبه - مع فرنسا وروما. وبسبب هذا التعصب قام الشعب بثورة وخلعه من عرشه. وسميت هذه الثورة باسم " الثورة الإنجليزية المجيدة ".

والسؤال بعد ذلك:

ماذا يعنى التسامح عند لوك؟

ثمة عبارات في " رسالة التسامح " كاشفة عن معنى التسامح، وأنا أُنقِى منها أربع هي على النحو الآتى:

" ليس من حق أحد أن يقتحم، باسم الدين، الحقوق المدنية والأمور الدنيوية ". " فن الحكم ينبغى ألا يحمل فى طياته أية معرفة عن الدين الحق ". " خلاص النفوس من شأن الله وحده ". " الله لم يفوض أحداً فى أن يفرض على أى إنسان ديناً معيناً ".

والسؤال إذن:

ما مغزى هذه العبارات؟

مغزاها، عند لوك، أن التسامح يستلزم ألا يكون للدولة دين حتى لو كان هذا الدين، من بين الأديان الأخرى، هو دين الأغلبية لأنه لو حدث عكس ذلك، أى لو كان للدولة دين الأغلبية فتكون هذه الأغلبية طاغية بحكم طبيعة الدين من حيث هو مطلق. والطاغية بحكم كونه إفراراً من المطلق، هو مطلق بالضرورة، وعندئذ يمتنع التسامح بحكم أنه نسبي لأنه من إفرار العقد الاجتماعى المؤسس على العلمانية. إذن ثمة علاقة عضوية بين التسامح والعلمانية.

والسؤال إذن:

ماذا تعنى النسبية فى التسامح؟

جواب لوك أن النسبية فى التسامح تعنى أن التسامح لا يمكن أن يكون بلا حدود. ففى رأيه أن الحاكم ينبغى عليه ألا يتسامح مع الآراء المضادة للمجتمع الإنسانى أو مع نقىض القواعد الأخلاقية الضرورية للمحافظة على المجتمع المدنى، ومعنى ذلك أن التسامح ينطوى على نقىضه وهو اللاتسامح.

وقد أثرت هذه الإشكالية فى مؤتمر إقليمى عقدته فى جامعة الدول العربية فى نوفمبر عام 1981 تحت عنوان " التسامح

الثقافي"، وبسبب هذا العنوان كان ثمة تخوف، لدى المؤسسة الغربية التي كانت الداعم الأساسي لهذا المؤتمر، لأن تناول قضية التسامح يستلزم تناول قضية التعصب. وقد قيل وقتها إن التعصب هو الذي اغتال الرئيس السادات، وهو الذي كان يهدد الدولة بإحداث انقلاب أو ثورة. وقد أشرت إلى هذا التخوف في الجلسة الافتتاحية، إذ قلت فيما قلت إن هذا المؤتمر سيواجه تناقضات عديدة، ومن هذه التناقضات أن التسامح بلا حدود يدمر التسامح، وأن الإبداع إفراز من التعصب على نحو ما حدث لإبداع كوبرنيكس الخاص بنظرية دوران الأرض، فهذه النظرية تم إبداعها في زمن كان محكوماً بمحاكم التفتيش في العصور الوسطى الأوروبية.

وكان السؤال المثار بعد ذلك:

هل في الإمكان رفع هذه المتناقضات؟

وكان جوابي أن هذا السؤال يستلزم العودة إلى الجذور، ولكن أية جذور؟ هل هي جذور التسامح أم جذور عدم التسامح، أو بالأدق التعصب لأنه هو الذي كان سائداً ولا يزال؟

وأظن أن البحث عن جذور التعصب لم يكن من مهمة نظرية العقد الاجتماعي، وإنما من مهمة التنوير في القرن الثامن عشر.

التنوير

إذا كان سلطان الحاكم - فى نظرية العقد الاجتماعى عند الفيلسوف الإنجليزى جون لوك - سلطاناً نسبياً وليس سلطاناً مطلقاً بدعى أن الشعب وليس الله هو الذى أتى به حاكماً فإنه يكون بالضرورة علمانياً لأنه يفكر فى إطار ما هو نسبى وليس فى إطار ما هو مطلق. وإذا كان الحاكم علمانياً فهو بالضرورة متسامح، لأن التسامح يستلزم قبول الاختلاف.

ولكن ماذا يفعل الحاكم إذا كان المختلف معه متعصباً؟

ونجيب بسؤال: من هو المتعصب؟

الجواب: هو الذى يشتهى انتصار عقيدته على عقيدة الآخرين، وهو الذى يشتهى، عند اللزوم، الاستعانة بالعنف لتدمير عقيدة هؤلاء. ولهذا يقال عن المتعصب إنه دوجماتيقي. والدوجماتيقي لفظ معرب ويعنى توهم امتلاك الحقيقة المطلقة. وإذا تمادى الدوجماتيقي فى هذا الوهم فإنه يدخل فى "سُبات دوجماتيقي". وهذا المصطلح قد صكه الفيلسوف الألماني

عمانوئيل كانط الذى يقال عنه إنه يقف عند قمة التنوير الأوروبى
فى القرن الثامن عشر.

والسؤال إذن:

ما التنوير؟

الجواب الشائع عن هذا السؤال هو جواب كانط فى مقالته
المشهورة بعنوان " جواب عن سؤال: ما التنوير؟ " وجوابه أن
التنوير هو إعمال العقل من غير معونة الآخرين، الأمر الذى يمكن
معه القول بأنه لا سلطان على العقل إلا العقل نفسه. ومعنى ذلك
أن لدى كل منا عقليْن: عقل يفكر ثم ينعكس على ذاته فيكون عقلاً
آخر يفكر فيما يفكر فيه. وهذا العقل الثانى هو العقل الناقد.

والسؤال بعد ذلك:

ما وظيفة كل من العقليْن؟

جواب كانط أن العقل الأول مكلف بالبحث عن أجوبة
لمسائل ليس فى مقدوره الإجابة عنها، وهذه المسائل تدور حول
المطلق سواء كان هذا المطلق هو الله أو الدولة. وعدم القدرة على
الإجابة عنها يعنى استحالة اقتناص المطلق. ومن هنا يميز كانط

بين حالتين: حالة البحث عن المطلق وهى حالة مشروعة، وحالة اقتناص المطلق وهى حالة غير مشروعة، لأن العقل بمجرد أن يتوهم أنه قد اقتنص المطلق فإنه يسقط فى الدوجماتيقية. والذي يمنعه من الوقوع فى ذلك الوهم هو العقل الثانى وهو العقل الناقد، أو بالأدق هو ذلك العقل العلمانى الذى لا يفكر إلا فيما هو نسبى، وليس فيما هو مطلق. وهذا التعريف للعقل الثانى يعنى عدم نفى المطلق، ولكنه يعنى كذلك أن هذا المطلق من المحال اقتناصه ومن ثم يمتنع السقوط فى الدوجماتيقية.

والسؤال بعد ذلك:

ماذا يحدث لو سقطت البشرية فى الدوجماتيقية؟

وفي صياغة أخرى:

ماذا يحدث لو اقتنص كل مجتمع مطلقاً معيناً؟

يصبح لدينا عدة مطلقات. ولكن المطلق لا يتعدد، إذ هو واحد بحكم طبيعته، فإذا تعددت المطلقات تدخل فى صراع بل تدخل فى حروب، إذ تعايش المطلقات أمر محال. وإذا جاز لنا الاستعانة بمصطلحات دارون صاحب نظرية التطور يمكن القول بأن المطلقات المتعددة تدخل فى صراع من أجل الوجود، والبقاء

للأصلح، وأنا هنا أتحفظ في مسألة البقاء للأصلح وأقول لا بقاء للأصلح لأنه ليس ثمة ما هو أصلح بين المطلقات، وهذا هو ما أسميه " جريمة قتل لاهوتية " .

ولهذا يمكن اعتبار التتوير المؤسس على العلمانية أعظم ثورة في تاريخ البشرية تربي البشر على كيفية اجتثاث هذه الجريمة اللاهوتية. بيد أن هذه التربية ليست بالأمر الميسور. فقد حاول كانط في كتابه المأساوي وعنوانه " الدين في حدود العقل وحده " أن ينهي الصراع بين المطلقات فارتأى أن تعدد الأديان إنما يكون من حيث الشكل بحكم تعدد الطقوس والعبارات الخارجية، أما من حيث المضمون فالدين واحد لأنه يقوم على الأخلاق، وليس على أى شيء آخر. يقول: " إن كل ما قد يتوهم الإنسان أنه يستطيع عن طريقه أن يكسب رضا الله - فيما عدا اتخاذ مسالك أخلاقي طيب في حياته - إنما هو محض هذيان ديني أو مجرد عبادة زائفة لله ". ويترتب على ذلك تأويل النصوص الدينية تأويلاً رمزياً، ومن ثم ننزع منها السمة المطلقية دون أن ننفي المطلق، لأن المطلق، في هذه الحالة، يصبح حالة عقلية لا علاقة لها بتنظيم المجتمع لأن تنظيم المجتمع محكوم بعقد اجتماعي هو مجرد موافقة بشرية محكومة بالقانون.

هذا موجز لما ورد في كتاب كانط " الدين في حدود العقل وحده ". وعند صدوره في عام 1793 تلقى كانط خطاب لوم رسمياً من وزير المعارف باسم الملك جاء فيه أنه يستهين بالعقيدة الدينية، وأن هذه الاستهانة مرفوضة، وأن عليه أن يكف عن هذا المسلك، وإذا لم يذعن لهذا المطلب فالعاقبة سيئة. وقد أرسل كانط خطاب اعتذار إلى الملك جاء فيه أن موقفه الفلسفي يحترم المسيحية، وتعهد بعدم الكتابة في الدين بصفته "تابعاً جدياً أميناً لجلالة الملك"، وهذه العبارة قصد منها كانط أن تعهده مؤقت بحياة الملك. وبالفعل عاد إلى الكتابة في المسائل الدينية بعد وفاة الملك عام 1797.

والسؤال بعد ذلك هو على النحو الآتي:

هل الدين مسألة سياسية؟

أو في صياغة أخرى:

هل الدفاع عن مطلق معين من مستلزمات الحاكم، والتتوير

- من حيث هو المكون الثالث للديمقراطية - هو على النقيض من

ذلك؟

الليبرالية

الليبرالية لفظ مُعرب، واللفظ المُعرب هو اللفظ المصبوغ بصيغة عربية عند نقله بلفظه الأجنبي إلى اللغة العربية. واللفظ الأجنبي هنا هو Liberalism وهو مشتق من اللفظ اللاتيني Liberalis ومعناه " الإنسان الحر " .

وبعد ذلك ثمة سؤالان:

متى نشأ مصطلح الليبرالية؟

وما معناه؟

عن السؤال الأول نجيب بأن ثمة ثلاثة أقاويل عن نشأة الليبرالية. قيل أولاً إن عام 1812 هو بداية تداول هذا المصطلح لتحديد هوية حزب سياسى أسباني.

وقيل ثانياً إن نشأة الليبرالية ملازمة لنشأة الرأسمالية بدعوى أن الرأسمالية هي الطريق إلى تحقيق الغاية من الليبرالية وهي حرية الفرد.

وقيل ثالثاً إن حروب الأديان في القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوروبا قد انبثقت عنها الليبرالية، لأن التسامح هو الطريق إلى منع الحروب، وهو في الوقت نفسه الطريق إلى الليبرالية من حيث إن التسامح يستلزم الحرية.

هذا عن السؤال الأول، فماذا عن السؤال الثاني؟

ثمة ثلاثة تعريفات لليبرالية:

التعريف الأول يحصرها في حماية الملكية الخاصة، وحيث إن الملكية الخاصة هي المكون الرئيسي للرأسمالية، فالعلاقة إذن بين الليبرالية والرأسمالية علاقة عضوية، ومن ثم فإن من يرفض الملكية الخاصة ويدع إلى الملكية العامة يقف مع ماركس ضد الليبرالية.

والتعريف الثاني يوجزها في قدرة الفرد على تحديد غاياته بنفسه.

والتعريف الثالث أن الليبرالية تعني أن سلطة الفرد فوق سلطة المجتمع.

وأنا أؤثر التعريف الثالث على التعريفين الأول والثاني لأنه

يتناول بدقة تحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع، فالملكية الخاصة، في التعريف الأول، هي ملكية الفرد وليست ملكية المجتمع. وفي التعريف الثاني اختصاص الفرد بتحديد غاياته يجعله مستقلاً عن المجتمع. ومعنى ذلك أن التعريف الثالث هو الأفضل لأنه لا يراوغ في تحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع.

وأظن أن الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل هو الذي انشغل بالبحث في ذلك التعريف الثالث في كتابه المشهور والمعنون " عن الحرية "، ولذلك يقال عنه إنه الفيلسوف المنطّر للبرالية في القرن التاسع عشر.

والسؤال إذن: ماذا تعنى الحرية عند هذا الفيلسوف؟

الحرية، عنده، تكمن أولاً في تحديد العلاقة بين الحكام والمحكومين، وتكمن ثانياً في تحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع. عن العلاقة الأولى يكون المحكومون مهومين بالدفاع عن أنفسهم وذلك بالحد من سلطة الحكام، وتسهم الأحزاب في الحد من هذه السلطة، ولكن مع تواصل الصراع في اتجاه أن يكون المحكومون هم الذين يختارون الحكام حتى يكون لهم الدور الفعال في إحداث تطابق بين مصالح المحكومين ومصالح الأمة.

إلا أن ثمة ظاهرة جديدة بزغت من بين المحكومين وهى فئة من الشعب زعمت أنها الأغلبية وراحت تقهر الأقلية، الأمر الذى أدى بهذه الأغلبية إلى الطغيان وأطلق عليها جون ستيوارت مل " طغيان الأغلبية". ومع الوقت تحول هذا الطغيان من المجال السياسى إلى المجال الاجتماعى، ومن ثم صك مصطلح " طغيان الرأى العام"، وهو يعنى الزعم بأن من حق المجتمع أن يطلب من جميع أعضائه الانصياع للرأى العام. ومل لا يقبل طغيان الرأى العام إلا إذا كان مرهوناً بعدم وأد حرية الفكر وحرية التعبير، فإذا حدث وواد الرأى العام هذه الحرية فمعنى ذلك أن ما يقوله الرأى العام هو حقيقة مطلقة. المطلوب إذن عدم الوقوع فى برائن الحقيقة المطلقة حتى نتجنب واد الحرية.

والسؤال إذن: كيف نحقق هذا المطلوب؟

جواب مل أن على الدولة والمجتمع أن يكونان على قناعة بأن الرأى المعارض للرأى العام يمكن أن يكون صائباً. أما أنا فأرى أنه كان على مل أن يتعمق مفهوم الحقيقة المطلقة الذى يعنى " توهم " امتلاك الحقيقة المطلقة. وقد كرس كانط فلسفته لإزالة هذا الوهم من أجل تأسيس التنوير، إلا أن هذا التأسيس لم يكن ممكناً

من غير نظرية العقد الاجتماعي عند لوك، وهذه لم تكن ممكنة من غير العلمانية عند كوبرنيكس.

ومع استكمال التعمق لمفهوم الحقيقة المطلقة عند مل يمكن إضافة ليبرالية مل إلى ثلاثية العلمانية والعقد الاجتماعي والتتوير، فنكون لدينا "رباعية الديمقراطية".

الفصل الثانى

ماذا فعلنا بـ « رباعية الديمقراطية » ؟

اغتلنا العلمانية

إذا كانت " رباعية الديمقراطية " هي العلمانية ونظرية العقد الاجتماعي والتتوير والليبرالية، وإذا كانت هذه المكونات قد استغرقت أربعة قرون من أجل تأسيس الديمقراطية في الغرب، فماذا فعلنا بها في مصر؟

نجيب عن هذا السؤال بالمكون الأول والأساسي وهو العلمانية، ونتساءل عما قيل عنها وعن نتائج هذا القيل.

قيل عنها أولاً إنها ضد الدين، ولهذا فهي تحت على الكفر والزندقة والإلحاد.

وقيل عنها ثانياً إنها ظاهرة خاصة بالغرب ولا تستقيم مع الموروث الديني المصري، ومن ثم لا يلزم استيرادها.

والسؤال إذن:

ما مدى سلامة هذين القولين؟

جواب هذا السؤال عند العلمانيين المصريين وأنا أنتقى
منهم ثلاثة: فرح أنطون وفرج فودة ونجيب محفوظ.

أبدأ بفرح أنطون وأتساءل:

ماذا حدث له؟

أصدر كتاباً عنوانه " ابن رشد وفلسفته " في عام 1903. اتخذ
من فلسفته منطلقاً للدعوة إلى تأسيس عقل علماني يفصل بين الدين
والدولة. وإثر صدور الكتاب أعلنت مجلة "المنار" لصاحبها الشيخ
رشيد رضا أن مجلة "الجامعة"، التي يرأسها فرح أنطون، التي
كانت تنشر الكتاب مسلسلاً، قد أهانت العقائد الإسلامية، كما أهانت
أئمة المسلمين. وعندما مات رشيد رضا تولى مسؤولية مجلة
" المنار " الشيخ حسن البناء، مؤسس حركة الإخوان المسلمين. ومن
يومها والعلمانية هي العدو اللدود لهذه الحركة.

وعندما أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة من
كتب التثوير لمواجهة الإرهاب والتطرف، نشرت كتاب فرح
أنطون بعد أن حذفت منه المقدمة التي يدعو فيها فرح أنطون
إلى فصل الدين عن الدولة، كما حذفت الحوار الذي دار بينه
وبين الشيخ محمد عبده !

وفى 8 يونيو 1992 اغتيل العلماني فرج فودة، إذ قتله أصولي أمي استناداً إلى فتوى دينية. وقتله هكذا شاهد على سلامة رأي فرج فودة في أن العقل المصري في أزمة، وأزمته تكمن في أنه معطل ولا يفكر إلا بالمطلق.

يبقى نجيب محفوظ .. كان يدعو إلى العلمانية في ثانيا قصصه ورواياته وبالذات رواية " أولاد حارتنا " التي دفعت به إلى نيل جائزة نوبل. إلا أن دعوته كانت مغلفة برموز يمتنع معها أن يكون صريحاً. فمن أبطال روايته رجل لقيط اسمه عرفة يمارس السحر، والسحر عنده مجموعة من الأدوية صنعت من مواد غريبة ليشفى الناس من المرض. وعرفة اسمه مأخوذ من المعرفة والمعرفة تشير إلى العلم.

وهنا سؤالان:

السؤال الأول: ما الذي دفع نجيب محفوظ إلى وصم العلم بأنه لقيط؟

أغلب الظن أنه يريد القول بأن العلم ليس منزلاً من الله وليس على علاقة بالأديان.

والسؤال الثانى: ما الذى دفع نجيب محفوظ إلى وصم العلم بالسحر؟

أغلب الظن كذلك أنه يريد القول بأن العلم - فى بدايته - كان غريباً على الناس، وكان غامضاً، والغريب فى أمر عرفة أنه كان يسجل علمه وسحره فى كراسة. وعندما مات " عرفة " لم يعثر أحد على الكراسة.

والسؤال بعد ذلك هو على النحو الآتى:

هل عثر صاحب الفتوى الدينية بضرورة قتل نجيب على هذه الكراسة فأوعز إلى شاب أمى أصولى بقتله فى 14 أكتوبر 1994، إلا أن القتل لم يصل إلى منتهاه ؟

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأن العلمانية فى مصر فى حالة اغتيال، إما معنوياً كما فى حالة فرح أنطون، وإما جسدياً كما فى حالة فرح فودة ونجيب محفوظ. وسبب ذلك مردود إلى حركة الإخوان المسلمين.

صادرنا نظرية العقد الاجتماعي

شاعت نظرية العقد الاجتماعي في أوروبا في القرن السابع عشر بفضل فيلسوفين انجليزيين أحدهما توماس هوبز والآخر هو جون لوك، إلا أن بينهما اتفاقاً وافتراقاً. الاتفاق يكمن في تحديد العلاقة بين الحاكم والشعب، وهي علاقة قائمة على تنازل كل فرد من أفراد الشعب عن بعض حقوقه لسلطة عامة من أجل تحقيق الأمن والأمان. أما الافتراق فهو قائم في أن السلطة العامة، عند هوبز، هي سلطة مطلقة وبالتالي يكون من واجب الفرد الخضوع للمطلق، ومن ثم يعيدنا هوبز مرة أخرى إلى الحق الإلهي للحاكم. أما لوك فإنه يقف ضد الحكم الإلهي للحاكم لأن المجتمع، في رأيه، هو من صنع البشر وليس من صنع الله. والمقابل المصري لجون لوك هو الشيخ علي عبدالرازق الذي أصدر كتابه المأساوي واشتهر به وعنوانه " الإسلام وأصول الحكم " (1925). جاء فيه أن ثمة مذهبين في مسألة الخلافة عند المسلمين، المذهب الأول أن الخليفة يستمد سلطانه من الله في أرضه، ولذلك فإن الله نفسه

هو الذى يختار الخليفة. وهذا المذهب فاش عند المسلمين. أما المذهب الثانى فهو القائل بأن الخليفة يستمد سلطانه من الأمة، إذ هى مصدر قوته.

ثم يقول معقباً على هذين المذهبين: " مثل هذا الخلاف بين المسلمين فى مصدر سلطان الخليفة قد ظهر بين الأوروبيين وكان له أثر فعلى فى تطور التاريخ الأوروبى. ويكاد المذهب الأول يكون موافقاً لما اشتهر به الفيلسوف " هوبز " من أن سلطان الملوك مقدس وحقهم سماوى، وأما المذهب الثانى فهو يشبه أن يكون المذهب نفسه الذى اشتهر به الفيلسوف " لوك ". والجدير بالتنويه فى هذا القول أن على عبدالرازق يلفت الانتباه إلى أن ثمة تماثلاً بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية فى تناول مسألة الحكم المطلق، والجدير بالتنويه أيضاً أن على عبدالرازق أثر لوك على هوبز، لأن هوبز من أنصار الحق الإلهى للحاكم أو من أنصار الخلافة على حد التعبير الإسلامى. أما لوك فهو من معارضى الحق الإلهى أو من أنصار إنكار الخلافة.

والمؤال بعد ذلك:

ماذا حدث للشيخ على عبدالرازق؟

قدمت إلى مشيخة الجامع الأزهر عرائض وعليها إمضاء جمع غفير من العلماء بدعوى أن كتاب على عبدالرازق يحوى أموراً مخالفة للدين. ومن أهم هذه الأمور قول مؤلفه إن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده رضى الله عنهم كانت لا دينية.

وفى 12 أغسطس عام 1925 صدر حكم من شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً من هيئة كبار العلماء إخراج الشيخ على عبدالرازق من زمرة العلماء وطرده من وظيفته وعدم أهليته للقيام بأى وظيفة عمومية دينية كانت أو لا دينية.

وفى 20 أغسطس عام 1925 أيد زعيم الأمة سعد زغلول قرار هيئة كبار العلماء قائلاً: " لقد قرأت للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير على نحو ما كتب الشيخ على عبدالرازق ".

ومغزى عبارة سعد زغلول تكمن فى ألا فرق بين الإخوان المسلمين والوفد فى مسألة ضرورة الخلافة. ولهذا

كان من المشروع تحالف الوفد الجديد برئاسة فؤاد سراج الدين مع الإخوان المسلمين. وقد جاءت المادة الثانية من الدستور التى تنص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع معبرة عن ضرورة الخلافة وضرورة الحق الإلهى للحاكم.

والسؤال بعد ذلك:

ما الفارق بين جون لوك والشيخ على عبدالرازق مع أنهما معاً ضد الحق الإلهى للحاكم؟

أصبح لوك هو المنظر الأساسى للعلمانية فى أوروبا فى ضوء نظرية العقد الاجتماعى المكون الثانى لرباعية الديمقراطية الذى يأتى فى المرتبة الثانية بعد المكون الأول وهو العلمانية.

أما الشيخ على عبدالرازق فقد أصبح الخائف الأساسى من ذكر كتابه إلى الحد الذى هدد فيه بإقامة دعوى قضائية ضد كل من يجرؤ على طبع كتابه ونشره، وأصبحت وسائل الإعلام والمؤسسات الحكومية والنقابات المهنية فى خدمة حركة الإخوان المسلمين التى تدعو إلى التأسيس الدينى للمجتمع والدولة

والوطن. ومصادرة الفكر الذى يدعو إلى النقيض من هذا
التأسيس وهو العلمانية وما يلزمها من نظرية العقد الاجتماعى
على نحو ما جاءت عند جون لوك أو على عبدالرازق.

وأذننا التنوير

إذا كان التنوير يعنى ألا سلطان على العقل إلا العقل نفسه
فمعنى ذلك أن وأد التنوير هو وأد للعقل.

والسؤال إذن:

ما معنى وأد العقل؟

لغة: الوأد هو الدفن حياً، والدفن حياً يعنى الخنق، والخنق
عصر الحلق حتى الموت. وإذا كان الحلق هو الذى تخرج منه
حروف الهجاء عند النطق، وإذا كان لفظ "منطق" مشتق من
لفظ "نطق"، فالخنق إذن إبطال المنطق. ومعنى ذلك أن ثمة
تماثلاً بين الخنق وإبطال المنطق.

والسؤال إذن:

ماذا نخلق لكي يتحقق إبطال العقل؟

نخلق البرهان، أى نخلق العملية الذهنية التى نقوم بها
للتدليل على صحة فكرة أو فسادها. وقد تم خنق البرهان على يد

ابن الصلاح الشهرزورى الذى كان يعتبر، فى القرن السابع الهجرى، من أكبر أئمة الحديث، أفتى فقال: "وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر .. شر، وما يزعمه المنطقى للمنطق من أمر البرهان فقد أغنى الله عنه كل صحيح الذهن. ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان ومكر به".

والسؤال بعد ذلك:

إذا كان الاشتغال بالبرهان زندقة. فبماذا نشتغل؟

نشتغل بالفاظ تغينا عن البرهان وهى على النحو الآتى:

مؤامرة وخيانة وعمالة. ومعنى هذه الألفاظ الثلاثة أنك إذا دخلت فى حلبة الحوار من أجل إقناع محاورك وعجزت عن إقناعه فأنت إزاء أحد أمرين: إما أن تعلن عجزك وتحاول بعد ذلك أن تكون على وعى بضرورة إصلاح هذا العجز، وإما أن تقنع بأنك من ملاك الحقيقة المطلقة وأن محاورك متآمر أو خائن أو عميل فى حده الأدنى أو أنه زنديق وكافر وملحد فى حده الأقصى.

وتأسيساً على ذلك تم وأد التتوير، ونمثل لما نقول من

أحوال مصر الثقافية في القرنين التاسع عشر والعشرين. ففي القرن التاسع عشر أرسل محمد علي بعثة علمية إلى فرنسا بقيادة رفاة الطهطاوى من أجل نقل الثقافة الغربية وذلك بترجمتها. وإثر انتهاء زمن البعثة نشر رفاة كتاباً عنوانه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" (1834). جاء فيه "أن حكماء باريز لهم في العلوم الحكيمة حشوات ضالالية مخالفة لسائر الكتب الدينية. من ثم فمن يرد الخوض في لغة الفرنسية المشتملة على شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة وإلا ضاع يقينه". يقول ذلك وقد ترجم مدة إقامته في فرنسا اثني عشر كتاباً أو شذرة، وقرأ روح القوانين لمونتسكيو وعقد التأسيس والاجتماع الإنسانى لروسو ومعجم الفلسفة لفولتير، وكل هذا يعنى أن رفاة وهو ينقل ثقافة التنوير، في فرنسا في القرن الثامن عشر، كان يدعو في الوقت نفسه إلى عدم تمثيل هذه الثقافة. ولهذا أخطأ ألبرت حوراني في كتابه "الفكر العربى في العصر الليبرالى" حين قرر أن فكر التنوير الأوروبى قد ترك أثراً في رفاة وفي العقل المصرى بفضل رفاة. أضف إلى ذلك أن مخطوط كتاب "تخليص الإبريز" كانت به فقرات حذفها هو بنفسه .. من هذه الفقرات فقرة تتحدث عن إثبات

علماء الإفرنج لدوران الأرض حول الشمس، وكان مكانها فى
المقالة السادسة فى آخر التعريف بالجغرافيا الفلكية.

والسؤال بعد ذلك هو على النحو الآتى:

ماذا يعنى تحذير رفاة الطهطاوى من قراءة أفكار
التتوير وحذفه لنظرية دوران الأرض؟

يعنى أنه من الأفضل إبطال أعمال العقل فى الفلسفة وفى
العلم. ويشير إلى هذا المعنى زكى نجيب محمود فى كتابه
"تجديد الفكر العربى"، يقول: "إن السماء قد أمرت وعلى
الأرض أن تطيع، وأن الخالق قد خطط وعلى المخلوق أن يقنع،
وأنه إذا ما تعارضت الآخرة والدنيا كانت الآخرة أحق
بالاختيار. العلاقة بين الطرفين ليست بالأخذ والعطاء، بل هى
علاقة الحاكم والمحكوم، والحاكم مطلق السلطان. نلزم عن هذه
حقيقة ثانية هى أن قوانين الأشياء والظواهر فى الطبيعة قد
تطرد أو لا تطرد بحسب ما يشاء لها الحاكم السماوى المطلق.
وإذا كانت هذه هى الصورة الكونية فلا بد أن تكون كذلك هى
الصورة لحياة الإنسان فى مجتمعه، فلصاحب السلطان أن يريد
وعلى الناس أن يطيعوا".

أنا أزيد هذا المعنى إيضاحاً بالقول إن حركة الإخوان المسلمين هي الداعية له بل هي المؤسسة له استناداً إلى فكر ابن تيمية " 1263 - 1330 " الذي يؤثر السمع على العقل ويُكفر من يستعين بالعقل في فهم النص الديني.

هذا هو ما فعلناه بالتتوير، والسخرية هنا أننا احتفلنا بمرور مائة عام على " التتوير " في مصر في عام 1992، وتُصوِّب هذا الخطأ يكمن في قولنا إننا في ذلك العام قد احتفلنا بمرور مائة عام على " وأد العقل ".

بترنا الليبرالية

فى اللغة العربية يقال " بتره " أى قطعه مستأصلاً، أى قلعه بأصله. وحيث إن الليبرالية هى المكوّن الرابع والأخير للديمقراطية التى أصلها فى المكون الأول وهو العلمانية فالقول ببترها يعنى قلعها بالعلمانية، أى قلعها هى والعلمانية فى وقت واحد. ومغزى هذا القول أن الليبرالية ليست ممكنة من غير العلمانية.

وهنا يثار سؤال بالمخالف لهذا القول:

هل يمكن أن تكون ليبرالياً من غير أن تكون علمانياً؟

جوابى بالسلب لأنه إذا كانت العلمانية هى التفكير بالنسبى وليس بالمطلق فاستبعادها من الليبرالية يعنى أن تكون الليبرالية هى التفكير بالمطلق، وعندئذ تكون مغموسة فى الأصولية، وهذا تناقض غير مشروع، أى مرفوض، أى ليس من الممكن رفعه. إلا أن ثمة رأياً آخر بالمضاد وهو القول بأن هذا التناقض مشروع وبالتالي يمكن رفعه، أى يمكن تجاوزه وذلك بصك

مصطلح جديد هو " الديمقراطية اللائبرالية "، وهو عنوان كتاب لمفكر أمريكي من أصل هندي اسمه فريد زكريا، رئيس تحرير مجلة " نيوزويك "، يستند في التتليل على صحة مصطلحه إلى مسلمة هي " طغيان الأغلبية " وتعنى أن الحكومة الديمقراطية تكمن فى السلطة " المطلقة " للأغلبية. ويمثل لما يقول بما حدث فى الهند عندما استقلت فى عام 1947، كان نهرو رئيس الوزراء من عام 1947 إلى عام 1964، وكان يحكم باسم حزب المؤتمر الذى كان مهيمناً على جميع أنحاء الحياة الهندية وكان نهرو علمانياً ومتسامحاً دينياً، وقيل وقتها إن الهند تمارس الديمقراطية بحزب واحد.

والسؤال إذن:

ماذا حدث بعد ذلك؟

تأسس حزب هندوسى أصولى اسمه " براتيا جاناتا "، دفع بالشعب إلى الدخول فى المنظومة السياسية فضعف التيار العلمانى وتمكن هذا الحزب الأصولى من الفوز فى الانتخابات ومن يومها والهند تعاني من الإرهاب الدينى.

وما حدث فى الهند حدث فى مصر، كيف؟

قيل إن مصر - قبل ثورة 1952 - كانت دولة ديمقراطية، إذ كانت الأحزاب متعددة والتنافس على السلطة يُمارس في إطار الانتخابات، والأغلبية الفائزة هي التي تحكم، ومع ذلك كانت الليبرالية غائبة: وكان غيابها مردوداً إلى سببين: السبب الأول أن لفظ " العلمانية " كان مجرماً ومكفراً، والسبب الثاني أن سلطة الفرد كانت مصادرة، فقد أيد حزب الوفد، وهو حزب الأغلبية، مصادرة كتاب " الإسلام وأصول الحكم " للشيخ على عبدالرازق (1925) لأنه ضد الخلافة، وضد الحق الإلهي للحاكم ومع نظرية العقد الاجتماعي للفيلسوف الانجليزي جون لوك (1632 - 1704) والتي تقر أن المجتمع من صنع البشر وليس من صنع الله. وأيد حزب الوفد أيضاً مصادرة كتاب " في الشعر الجاهلي " لطله حسين (1926) لأنه يتخذ من الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت منهجه في نقد التراث.

وفي عام 1928 تأسس التيار الأصولي تحت عنوان " الإخوان المسلمون "، وهذا التيار يتمتع معه أن تكون سلطة الفرد فوق سلطة المجتمع لأنه يستند إلى مبدأ السمع والطاعة عند ابن تيمية.

وتأسيساً على ذلك كله يمكن القول بأن الليبرالية قد تم
بترها قبل ثورة 1952، والسؤال بعد ذلك: ماذا حدث لليبرالية
بعد الثورة ؟ استمر غيابها ولكن بسبب مضاف إلى الأصولية
وهو عودة الفرعونية. فقد أعلن الرئيس جمال عبدالناصر أنه قد
تأثر برواية توفيق الحكيم المعنونة " عودة الروح " فأعدت
قراءتها من جديد لكي اكتشف مغزى هذا التأثير فإذا بي أقرأ
العبارة الآتية " نحن في انتظار خوفو جديد "، وأظن أن خوفو
قد جاء بعد طول انتظار.

ثم جاء الرئيس أنور السادات وقال عبارتين لهما دلالة
تاريخية وهما: " أنا فرعون مصر، والديمقراطية لها أنياب ".
وأخيراً جاء الرئيس مبارك فواجه تناقضاً حاداً بين
فرعونية كل من عبدالناصر والسادات المتمثلة في اعتقال مئات
القيادات الفكرية والسياسية والدينية وفصل مجموعة من أساتذة
الجامعات، وبين عشقه لإعمال العقل وبما ينطوي عليه من روح
علمانية. وقد رفع هذا التناقض بالإفراج عن المعتقلين وإعادة
أساتذة الجامعات إلى جامعاتهم. ومع ذلك فقد واجه تناقضاً أكثر
حدة بين تيار أصولي يهيمن على مؤسسات الدولة ويحاول

" خلع " العقل من جذوره وبين عقول هائمة على وجهها في التزامها بإعمال العقل. وقد اكتشف مبارك أن رفع هذا التناقض يكمن في تعديل المادة 76 من مواد الدستور، التي تنص على أن اختيار رئيس الجمهورية يتم بالاستفتاء وليس بالانتخاب. والفارق بين الاستفتاء والانتخاب أن الأول يستلزم مرشحاً واحداً أما الثاني فيستلزم أكثر من مرشح واحد، والواحد هنا يرمز إلى المطلق لأن المطلق هو الوحيد الذي يقال عنه إنه واحد. ولذلك فإننا عندما نستفتي على واحد فهذا الواحد عندما يأتي إلى السلطة فإنه يأتي كمطلق، إلا أن أغلبية المتقنين قد انهالت بمعول الهنم على تعديل المادة 76. وهكذا تم بتر الليبرالية مرة ثانية، المرة الأولى فيما قبل ثورة 1952 والمرة الثانية فيما بعدها.

والسؤال إذن:

هل البتر الثاني معناه إيمان البتر؟

الفصل الثالث

حضارة واحدة بين رباعيتين

حضارة واحدة بين رباعيتين متناقضتين

أكتب هذا العنوان وأنا أعلم أولاً أن الجمعية العامة للأمم المتحدة أطلقت على عام 2001 عام الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات. وأنا أعلم ثانياً أن جامعة الدول العربية عقدت مؤتمراً في نوفمبر 2001 عنوانه " حوار الحضارات: تواصل لا صراع ". وأنا أعلم ثالثاً أن ثمة ندوات ومؤتمرات دولية انعقدت من أجل إرساء دعائم حوار الحضارات. ولكني أعلم كذلك أن قرار الأمم المتحدة مردود إلى ما أحدثه كتاب صموئيل هنتجتون المعنون " تصادم الحضارات وإعادة بناء نظام عالمي " من جدل كوكبي حاد. ومع ذلك فإن هنتجتون ينحاز إلى القول بالحضارة الواحدة وهي الحضارة الغربية لأنها صانعة الحداثة. والحداثة، سلباً، تعنى أن الدولة ليس لها دين معين، وبالتالي فإنها تسمح بالتعددية والتقدم. والحداثة، إيجاباً، تعنى التحضر والتصنيع وحكم القانون والفردية والتمثيل النيابي. ومن هذه الزاوية فإن الحداثة لا تعنى أنها مسار غربي إنما تعنى أنها مسار حضاري.

وتأسيساً على ذلك يمكن القول بأن رباعية الديمقراطية
"العلمانية ونظرية العقد الاجتماعى والتنوير والليبرالية " قد
حدثت فى الغرب ولم تحدث فى مصر .

والسؤال إذن: لماذا حدثت الرباعية هناك ولم تحدث هنا؟

حدثت هناك بسبب بزوغ علماء وفلاسفة كانوا على وعى
بمعيار التقدم الحضارى الذى يتجه من إبطال أعمال العقل بسبب
غلبة الأسطورة إلى أعمال العقل بسبب غياب الأسطورة. وفى
ذلك الاتجاه سار كوبرنيكس وجاليليو وبرونو ولوتر ولوك وكانط
وجون ستيوارت مل، فى الفترة من القرن السادس عشر إلى
القرن التاسع عشر. وكان من إبداعاتهم بزوغ رباعية
الديمقراطية.

ولم يحدث عندنا بسبب بزوغ اثنين من عمالقة النضال
ضد أعمال العقل وهما ابن تيمية وسيد قطب، وأنا أربط بسين
الاثنين على الرغم من تباعد المسافة الزمنية، إذ الأول من
القرن الثالث عشر والثانى من القرن العشرين لأنهما الأساس
الفكرى لحركة الإخوان المسلمين.

قال ابن تيمية فى كتابه المعنون " درء التعارض بين

العقل والنقل": " إن ما هو ثابت بالسمع فهو ثابت سواء علمنا بالعقل أو بغير العقل ثبوته أو لم نعلم بثبوته لا بعقل ولا بغيره. وإذا كان الشرع يقوم على السمع فيجب تقديم الشرع عند التعارض مع العقل، وتقديمه أيضاً عند التعارض مع إجماع الأمة لأن الإجماع يستلزم طاعة العقل للسمع. وهذه الطاعة تستلزم تنازل العقل عن استخدام المجاز في تأويل النص الديني لأن هذا النص لا يقبل المجاز. ولهذا فمن يخرج على الإجماع يكون موضع تكفير بالضرورة."

أما سيد قطب المنظر لحركة الإخوان المسلمين فقد قال في كتابه المعنون " المستقبل لهذا الدين ": " إن الثقافة المصرية ثقافة إسلامية وبالتالي يلزم بثرتها من الثقافة الغربية بسبب أن هذه الثقافة مصابة بمرض " الفصام النكد ". والفصام النكد يعنى الانفصال عن واقع شحيح النفع. وهو يقصد بذلك الواقع " النهضة وعصر التتوير والثورة الصناعية فى أوروبا ". والبديل عن هذه الثقافة " حاكمية الله " فى كتابه المعنون " معالم فى الطريق " حيث يقول: " إن مملكة الله لا تقوم بأن يتولى الحاكمية فى الأرض رجال ينطقون باسم الآلهة كما كان الحال فيما يعرف باسم " الثيوقراطية " أو الحكم الإلهى المقدس، ولكنها

تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة. وحين تكون كذلك تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحرراً كاملاً وحقيقياً من العبودية للبشر، وتكون هذه هي الحضارة الإنسانية. ومعنى ذلك أن مدلول الحاكمة لا ينحصر في تلقى الشرائع القانونية من الله وحده. إن الشريعة تعنى كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية، وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد وأصول الحكم وأصول الأخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة أيضاً.

ما بعد رباعية الديمقراطية

إذا كانت، "رباعية الديمقراطية" لها زمان بدايته العلمانية في القرن السادس عشر والليبرالية في القرن التاسع عشر فالسؤال إذن: ماذا حدث في القرن العشرين؟

قيل عن القرن العشرين إنه زمن الثورة العلمية والتكنولوجية، والسؤال إذن:

ماذا تعنى هذه الثورة؟

تعنى تغييراً جذرياً في رؤية العقل للكون. كانت هذه الرؤية في العصور الوسطى المعتمدة رؤية دينية، ولكنها تحولت في اتجاه رؤية علمية في القرن السادس عشر عند كل من كوبرنيكس وجاليليو ونيوتن. أعلن كوبرنيكس أن الشمس مركز الكون والأرض تدور حولها، وأشاع جاليليو هذا الإعلان مع تحديد قوانين سرعة سقوط الأجسام، ثم أوضح نيوتن أن القوى المؤثرة في سقوط الأجسام هي نفس القوى المؤثرة في حركة الأفلاك. وقد صيغت كل هذه الظواهر الكونية في معادلات

رياضية من صنع هذه العقول الثلاثة، انزعجت السلطة الدينية في روما من هذه الصياغة العلمية للكون فصادرت كتاب كوبرنيكس وحاكمت جاليليو، وكان من الممكن اضطهاد الفيلسوف الفرنسي ديكارت الملقب بأبى الفلسفة الحديثة لأنه كان يؤلف كتاباً عنوانه " عن العالم " على غرار ما كتبه كل من هذين العالمين لولا أنه امتنع عن نشره. وقد صدرت أجزاء منه بعد موته بسبع وعشرين سنة.

وفى القرن العشرين جاء عقل رابع هو عقل اينشتاين، ادخل تعديلات جوهرية فى صياغات الرؤى الكونية للعقول الثلاثة فنشر فى عام 1905 أربعة بحوث وكانت الغاية منها البحث عن " المجال الموحد " للقوى المتحركة فى الكون وعددها أربع: الجاذبية والكهرومغناطيسية والتفاعل النووى الضعيف والتفاعل النووى القوى.

والسؤال إذن:

ماذا يعنى المجال الموحد؟

يعنى أن المعرفة العلمية متجهة نحو الوحدة على الرغم من تعدد مجالاتها. ومن هنا ورد إلى ذهنى مصطلح " وحدة

المعرفة" وهو مصطلح من وضع الفيلسوف الفرنسي ديدرو في عام 1755، إلا أنه كان يقصد به معنى الأنسيكلوبيديا، أى "الموسوعة"، أى جملة معارف، أما وحدة المعرفة التى أنشد تأسيسها فقد أوجزتها فيما أطلقت عليه "ثلاثية العلم"، وهذه الثلاثية مكونة من الفيزياء والسياسة والفلسفة. العلوم الطبيعية تُرد إلى الفيزياء، والعلوم الاجتماعية والإنسانية تُرد إلى السياسة، والفلسفة توحد بين العلمين فى رؤية كونية علمية. وفى هذا الإطار عقدت مؤتمراً دولياً فى القاهرة فى ديسمبر 1980 تحت عنوان "وحدة المعرفة" دعوت إليه نفرأ من الفلاسفة والعلماء كان من بينهم كبير فلاسفة بريطانيا السير ألفرد إير. قال فى كلمته الافتتاحية: "منذ خمسين عاماً كنا نناقش وحدة العلم فى حلقة فيينا، أما أنت فقد ذهبت إلى أبعد من ذلك، إذ تريد مناقشة وحدة العلم والفلسفة والدين". وبعد ذلك المؤتمر تبنت جامعة تورنتو بكندا مشروعى عن "وحدة المعرفة"، ومع الوقت ارتأت هذه الجامعة أن مشروعى طموح للغاية فحورته إلى "تكامُل المعرفة"، ومع ذلك شاع مصطلح وحدة المعرفة فى الغرب، إذ صدر كتاب مهم فى عام 1991 عن عالم الفيزياء النووية نيلز بوهر تحت عنوان "الفيزياء والفلسفة والسياسة"

وهو مماثل لعنوان بحثي المشار إليه آنفاً. وفي عام 1998 صدر كتاب من تأليف إدوارد ويلسون وهو من أعظم مفكرى القرن العشرين، وعنوان كتابه "وحدة المعرفة" وفي عام 2005 انعقد مؤتمر دولي في بروكسل ببلجيكا تحت عنوان "هل ثمة وحدة للمعرفة؟".

ومع بداية التسعينيات من القرن الماضى صك بيتر دركر عميد أساتذة الإدارة فى أمريكا مصطلح "مجتمع المعرفة" ويقصد به "مجتمع ما بعد الصناعى" ومعناه أن المعرفة قادرة على خلق مجتمع جديد، وهو مجتمع بازغ من ظاهرة جديدة هى ظاهرة الكوكبية، والكوكبية مصطلح معاصر ومعناه كوكب الأرض وما حدث له.

والسؤال إذن:

ماذا حدث لكوكب الأرض حتى يبرز منه مجتمع المعرفة؟

حدثت فيه ثلاث ظواهر: البريد الالكترونى، والانترنت والتجارة الالكترونية. وكان من شأن هذه الظواهر موت المسافة زمانياً ومكانياً، ومع موت المسافة تغير أسلوب رؤيتنا للكون، إذ

لم يعد دوجماتيقيًا، أى لم يعد قابلاً لتوهم امتلاك الحقيقة المطلقة فتوارت الحقيقة وبزغت المعرفة وقلنا " انفجار المعرفة " و"وحدة المعرفة " و"مجتمع المعرفة" وكان كل ذلك من ثمار "رباعية الديمقراطية".

الديمقراطية إذن حالة ذهنية خاصة بأسلوب رؤيتنا للكون. وقد تتحول إلى حالة سياسية ولكن بشرط أن تكون مرهونة بحالة ذهنية.

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
إعداد إدارة الشؤون الفنية

وهبه ، مراد

رباعية الديمقراطية/ مراد وهبه

ط ١ - القاهرة: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع ، (٢٠١١)

٦٨ ص ٢٠١ سم

رقم الإيداع : ٢٥٥٩ / ٢٠١١

تدمك : 6 - 024 - 472 - 977 - 978

١- الديمقراطية

أ- العنوان

٣٢١,٨

الناشر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

لصاحبها العقيد شيرين ثابت

E-Mail: elmsria.alsodia@hotmail.co.uk

<http://www.qubaaalhadetha.com>

١٦ أعمارات العبور - شارع صلاح سالم

الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفون : 02/24025777 تليفاكس : 02/22621365

محمول : 002/0123140315 - 002/0123171722

حقوق الطبع محفوظة للناشر

٢٠١١ م